ميادين النشاط الشاغرة

والشبان المتعطلون

بينما كان عشرات بل مئات بل ألوف من الشبان المصريين يطوفون بالوزارات والمصالح وفى أيديهم بطاقات التوصية أو الشهادات الدراسية التى انفقوا العمر فى تحصيلها ، وهم يستجدون وظيفة كتابية فى الدرجة الثامنة أو وظيفة فنية فى الدرجة السادسة على أكثر تقدير ...

بينما كان هؤلاء العشرات والمئات والألوف يقومون بهذا المطاف ... كان هناك عشرات بل مئات بل ألوف ممن لا يحملون بطاقات التوصية وربما لا يحملون شهادة دراسية ، يقتحمون ميادين النشاط الكثيرة التى فتحتها هذه الحرب على مصراعيها فى وادى النيل والبلاد القريبة الأخرى ، ويصبحون بين عشية وضحاها من أصحاب رءوس الأموال ، ويكسبون فى اليوم الواحد ما تدره الوظيفة على شبابنا الموظف فى عام !

فيا للفرصة الضائعة ، بل يا للذكاء الضائع ، بل يا للرجولة الضائعة !

إن الجرى وراء الوظيفة الحكومية — ولا سيما فى مثل هذه الظروف — لمنة من لعنات القدر ، ولكن المسئول عنها ليس الشباب وحده ، فالشباب يرزح تحت أثقال من الوراثة والبيئة والتربية الناقصة فى البيت والمدرسة والمجتمع على السواء .

وليس من العدل أن نلوم الشاب وحده حين يتسكع على أبواب الوزارات والمصالح ، بينما الآخرون يجمعون الثروة ويدركون الفرص السانحة . فقد نشأ هذا الشاب فى بيت لا يوجه آماله إلا للوظيفة ولا يتحدث إلا عن إتمام دراسته لينال الوظيفة ؛ وقد تربى فى مدرسة لا تعرف لها هدفا تتجه إليه بطلابها سوى الوظيفة ، ولا تبث فى نفوسهم إلا حب الوظيفة ، وقد خرج إلى مجتمع لا يحترم إلا صاحب الوظيفة ، ولا يأمن فى المعاملة إلا لصاحب الوظيفة ، ولا يزوج بناته إلا للموظف ... فالبيت والمدرسة والمجتمع عبيد للوظيفة فى هذه البلاد .

لو وجد هذا الشاب توجيها فى منزله إلى العمل الحر وقدوة ناجحة من أهله فى هذا العمل ؛ ولو وجد فى المدرسة من يربى فيه شخصية قوية مغامرة متفتحة البصيرة ؛ ولو وجد فى المجتمع تقديرا للمغامرة فى الميادين الحرة واحتراما للعاملين الأحرار ... لو وجد شيئا

من هذا الشبان نشأة أخرى ، يجارى بها الشباب الأجنبى فى داخل هـذه البلاد ، ولاتهز الفرص السانحة التى تكفل الثروة فى أقصر الأوقات .

عشرات بل مئات بل ألوف أثروا من هذه الحرب ثراء سريعا ، أولئك الذين اشتغلوا بعشرات من المغامرات والأعمال المباحة بسبب الظروف الطارئة ، كتأجير البيوت المفروشة ، وافتتاح المطاعم والمشارب والمتاجر الصغيرة للعاديات وسواها ، وبيع الخضر والفاكهة ، ومقاولات النقل والتغذية وتوريد مختلف المواد للقوات العسكرية ... إلى آخر هذه الأعمال .

وقد كسب بعضهم من عمل صغير مبالغ لاتخطر لشاب مصرى على بال ، استأجر بعضهم عمارة بأربعة آلاف جنيه فى العـام ثم أجرها بأربعين ألفا ... واستأجر أحدهم منزلا بأربعة وعشرين جنيها فى الشهر ثم أجره مفروشا بمائتين وأربعين ... وفتح أحدهم مطعما كلفه ألفا وسبعمائة من الجنيهات وهو يكسب فى اليوم الواحد مائة جنيه كاملة ... وفتح أحدهم متجرا صغيرا للفاكهة والخضر كلفه ثلاثين جنيها فقط وهو يكسب فى اليوم الواحد جنيهين اثنين... لا بل إن بعضهم عجز عن افتتاح متجر فهو يملأ عربة يد بالخضر ثم يبيعها لأحد المعسكرات ممكسب جنيه فى العربة ...

مكاسب ! مكاسب ! مكاسب ! هذه هى الكلمة التى تمتلئ بها أفواه وجيوب عشرات بل مئات بل ألوف من مختلفى الأجناس القاطنين فى مصر ، ويخرج الشبان المصريون منها صفر اليدين لأنهم عمى أو كالعمى عن الوسائل الميسورة للجميع !

أيدرى هؤلاء الشبان المساكين كيف يغتنى الآخرون ؟ إنهم يغتنون لأنهم يبتكرون ، وقد تكون ابتكارات تافهة ، ولكنها تأتى فى حينها ، فيجنى أصحابها ثمن الابتكار والتوفيق .

وليسمع شباننا المساكين بعض الأمثال :

فى السوق "شاى وكاكاو وزهرة تحمل اسما خاصا" أيعرفون من صاحب هذا الابتكار ؟ إنه رجل متمصر اهتدى إلى ابتكار صغير لطيف : هو أن يشترى صندوق الشاى أو الكاكاو أو مسحوق الزهرة ، ثم يقسمه إلى علب صغيرة ويلصق على كل علبة ماركة خاصة ثم يبيع هذه العلب الصغيرة بسعر مربح ، ويعلن عن بضاعته فى أسلوب جيـد ، ويتولى توزيعها بهمة طيبة ، ثم يصبح بعد فترة وجيزة من الاغنياء .

ثم ليسمع شباننا المساكين بعض الأمثال :

ترد إلى مصر الآن ملايين من علب البيرة الأمريكية الصفيح ، يشرب ما فيها ثم تلقى ويتركها الشاربون ، أيدرى شباننا أين تذهب هذه العلب الفارغة ؟ يجمعها أناس وهبهم الله

البصيرة بسعر مليم لكل علبة ، ثم يبيعونها فى الأرياف بسعر خمسة مليمات لتعمل منها كيزان الماء المعروفة فى الأرياف وذلك بسبب غلاء الصفيح . واضرب مليونا واحدا فى أربعة مليمات ينتج لك أربعة آلاف جنيه فى مثل هذه الصفقات .

ثم ليسمع شباننا المساكين بعض الأمثال :

فى مصر وفى بلدان الشرق كافة شيء يسمى "مكاتب التوكيلات" أفيدرى شباننا المصريون شيئا عن هذه التوكيلات ؟ إنها مكاتب لا يزيد الواحد منها عن حجرة أو حجرتين فى إحدى البنايات بداخلها شاب أو بضعة شبان من الأجانب "ولا شك" قد تعاقدوا مع بعض المصانع فى أوربا وأمريكا على أن يكونوا هم الوسطاء فيما يباع من إنتاج هذه المصانع فى بلد أو أكثر من بلاد الشرق ، فكلما تمت صفقة بوساطتهم كان لهم نصيب معلوم ؛ وهذا النصيب قد يصل فى كل عام إلى عشرات الألوف بل مئات الألوف من الجنيهات .

مصر غنية غنية ، فائضة بالثروة والغنى ، ولكن لمن يعرفون كيف يقتنصون هذه الثروات ولسوء الحظ أننا لا نهيء شباننا لهذا الاقتناص ، فهم فى شغل شاغل بالحصول على بطاقات التوصية يطوفون بها على الوزارات والمصالح والشركات أينما ، قانعين بالمرتب التافه الضئيل ، بعد الكد المضنى والتعب الطويل .

* * *

ولقد يفهم بعضهم من حديثنا عن ظروف الحرب والثروات المفاجئة فيها أن هذه الظروف وحدها هى التى تسنح بهذه الفرص ، وأنها قصيرة الأجل ، أما الواقع فغير ما يفهمون ، الواقع أن الفرصة سانحة فى كل وقت ، وأن ميادين النشاط شاغرة باستمرار تنتظر الجرأة والابتكار والشخصية . واليهم بعض الأمثال :

١ — هناك الصناعات الزراعية وأولها منتجات الألبان ، وإنى لأستغرب من كل متخرج فى كلية الزراعة وفى الزراعة المتوسطة أن يلجأ الى الوظيفة ؛ وأمامه منجم الذهب فى منتجات الألبان وغير الألبان .

هذا اللبن الذى يباع فى مصر بأبخس الأثمان ، وفى استطاعة هؤلاء المتخصصين أن يصنعوا منه أصنافا غالية من الجبن وكميات كبيرة من الزبد بطرق فنية تدر عليهم أعظم الأرباح .

ثم تربية الماشية والطيور وعمليات التفريخ والتلقيح والتهجين فى الحيوان والنبات ... هذه الكنوز التى تضع الطبيعة والبيئة مفاتيحها فى أيديهم فيلقون بها فى بطر وغفلة ليبحثوا عن الوظائف ذات المرتب التافه المحدود .

ثم الزهريات وصناعة الروائح والعطور . وفى مصر من ينتج له الفدان الواحد من الأزهار خمسة وعشرين جنيها فى الشهر مرتب موظف فى الدرجة الخامسة .

٢ — وهناك مصايد السمك والإسفنج وقد كان يتولاها جماعة من الإيطاليين فى الغالب تخلوا عنها الآن بحكم الظروف ، ومجموع ما كانوا يربحونه منها لا يقل عن نصف مليون من الجنيهات فى العام . فما فائدة أن تكون عندنا كلية للعلوم إذا لم يستغل أبناؤها هذه الكنوز الذهبية للربح والإثراء ؟

٣ — وهناك المناجم للفوسفات والمنجنيز وللبترول كذلك وهى تدر مئات الألوف من الجنيهات فى العام ، تذهب جميعها الى غير المصريين من أصحاب المغامرة والجرأة والابتكار .

٤ — وهناك النقل النيلى وتشتغل به شركات أجنبية فى غفلة عن الشباب المصرى المشغول بالبحث عن الوظائف التافهة ، و " لانش " واحد لا يتجاوز ثمنه ثمن سيارة فاخرة يذهب بها أحد " أبناء الذوات " الى الديوان ، قد يدر على صاحبه ألف جنيه فى العام !

وهناك عشرات بل مئات من وسائل الكسب الضخم السريع ، وفيها ما لا يكلف رأس مال يعجز عنه الكثيرون من الشبان ، ولكنه يكلف جهدا وإقداما ومخامرة لم يألفها الشباب المصرى ولم يزود فى البيت ولا المدرسة بشىء من أدواتها الضرورية .

وقد ضربت المثل مرة بمشارب اللبن فى العاصمة ، اللبن الذى تنتجه البلاد وتبيعه بأبخس الأثمان ، فيستغله بعض الشبان الأجانب ذوى الأعين المفتوحة ، وينشئون مشارب اللبن فى العاصمة ، فلا تزيد تكاليف المشرب الواحد على مائتى جنيه ثم يدر ربحا فى اليوم الواحد عشرة جنيهات !

*
* *

والآن ! لا فائدة من تقريع الشبان المصريين على جريمة نصيبهم فيها ضئيل . ولسنا ننتظر من البيت المصرى أن ينقلب بين يوم وليلة بيتا نموذجيا يربى شخصية أطفاله وفتيانه ويبث فيهم روح المغامرة والابتكار والابتداع .

إن حب الوظيفة لعنة مضروبة على التربية المنزلية عندنا إلى أمد بعيد . ولكنها لعنة يمكن رفعها عن جو المدرسة المصرية ، ورفع هذه اللعنة يقتضى تغيير العقلية التعليمية بحيث تصبح التربية جزءا أصيلا من مهمة المدرسة .

ولكى تصبح التربية جزءا أصيلا من عمل المدرسة لا بد أن تختصر هذه البرامج المطولة التى ينفق فيها المدرس والطالب كل الوقت لحشو الأدمغة بالمعلومات ، ولا بد أن ينقص

عدد الطلاب فى كل فصل ، وأن ينقص عدد الفصول فى كل مدرسة ليستطيع المدرس أن يعرف تلاميذه ويستطيع الناظر أن يشرف على مدرسته ، ويتعاون الجميع على خلق شخصيات متميزة بدل أن يصنعوا قوالب متشابهة بحكم الازدحام .

ولا بد أن توضع للتعليم وللتربية أهداف . . . أهداف أخرى غير الامتحان ، أهمها تكوين شخصية معينة للطلاب يعنى فيها بميول كل طالب واتجاهه ويسمح لذاتيته بالنمو فى داخل هذه الحدود .

ولا بد أن توجد الصلة بين المدرسة والمجتمع ، وبينها وبين السوق العملية ، وأن تكون المرانة العملية جزءا من الدراسة كالتعليم النظرى سواء .

ولا بد أن تبسط للطلاب نماذج من الشخصيات الناجحة فى محيط الأعمال الحرة وأن يوجهوا نظريا وعمليا إلى غير وظائف الحكومة ، حتى تبدد هذه اللعنة من الرءوس !

على أن كل هذا لا يكفى ما لم تهيأ وسائل النجاح العملية بعد التخرج ، وأهم هذه الوسائل المال ، فبعض الشبان — حتى فى هذه الأيام — يحبون أن يسلكوا طريق العمل الحر ، ولكن المال يعوزهم ، بينما يوجد المال فى أيدى من ليس لهم هذا الاقدام ، أولئك الذين يتخرجون فى الزراعة مثلا فيقبلون وظيفة بعشرة جنيهات ، بينما آباؤهم يملكون ألوف الأفدنة ويدفعون مئات الجنيهات أجورا للوكلاء !

فالشاب الطموح يجب أن نوفر له المال ، وإنشاء بنك للتسليف الصناعى هو أفضل الوسائل ، فهو يتخصص فى هذه الناحية فيتقنها ويسهل إجراءاتها ويعرف كيف يضمن أمواله بعد التسليف ، وكيف يمد الشبان بالنصيحة والتوجيه لأفضل سبل النجاح والوفاء .

إن تعداد مصر يتضاعف كل ربع قرن ، وهذا شىء مخيف ، ولكنه يصبح أمرا محبوبا ومطلوبا إذا استطاعت البلاد أن تضمن الرزق للعدد المتزايد من السكان ، فالتعداد الكبير يهئ لمصر مكانتها فى المستقبل على شرط ألا يزيدها فقرا وانحطاطا ، وإلا أصبح تزايد العدد كارثة .

وفى مصر من وسائل الرزق الشىء الكثير ، والمجال متسع للكسب والمعاش ، ولكننا نترك شباننا فى ميدان الكفاح بلا سلاح ، فيهزمون بطبيعة الحال . ويتغلب عليهم أولئك المجهزون بأحدث وسائل النضال .

إن مصر بقرة حلوب ، ولا يجوز أن يذهب غيرها بدرها ، بينما أبناؤها يتزاحمون على أبواب الوزارات والمصالح أو يقنعون بأتفه الأعمال ذات الإيراد المحدود فى الشركات .

ولو كان فى مصر كثيرون من أمثال منشئ بنك مصر وشركاته من الأثرياء الذين يستخدمون أموالهم المكدسة فى تولى مرافق النشاط فى البلاد لما احتجنا لكتابة مثل هذا المقال !